الممارسة السوسيولوجية في الجزائر: بين سوسيولوجيا التفسير و سوسيولوجيا الفهم

د- محمد المهدي بن عيسى
أ- بـــــودبـــزة نـــاصـــــر
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
جامعة قاصدي مرباح – ورقلة

Summary:

In this article entitled: the sociological practice research in Algeria from sociological explanation to comprehensive sociology.

Nowadays, what is happening in the sociological Algerian approach that is followed in creating the problematical social Algerian reality changes , pushes us to the importance search for the special social researches, besides we are going to have a look at the sociological researches in Algeria. what is more ,to specify the approaches applied , the concepts followed and the analyses chosen in these researches , also we are going to diagnose some of these sociological and academicals studies.

الكلمات المفتاحية :
الـواقع الاجتماعـي – الممارسة السوسيولوجية – وحـدة التحـليل – سوسيولوجيا التفسير – سوسيولوجيا الفهم

مقدمــة:

من خلال هذا المقال سنحاول فهم ما يحدث في البحوث السوسيولوجية في الجزائر، والمقاربات المتبعة استقراء الواقع الاجتماعي الجزائري المتغير، لأن استشكال الواقع يتطلب بناء تصور سوسيولوجي حول الموضوع، وفق مقاربات تراعي التغير والتجدد في الواقع الاجتماعي المدروس، فنظرا لظهور مشكلات مرتبطة بمجالات اجتماعية جزئية، لم يبق المجتمع كوحدة كلية كبرى موضوعا لعلم الاجتماع، و انطلاقا من هذا سا نتعرض لأمرين هما:

أولا: سا نحاول استطلاع البحث السوسيولوجي في الجزائر لتحديد المقاربات الموظفة والمنهجيات المتبعة و وحدات التحليل المختارة في هذه البحوث، ولذلك سا نقوم في هذا المقال بطرح و عرض لمختلف المقاربات و الوحدات التحليلية المتبناة من مختلف المقاربات السوسيولوجية .

و **ثانيا:** سا نقوم بتشخيص بعض الدراسات السوسيولوجية التي تمت في إطار أكاديمي وفقا لهذا المنظور.

عرض لمختلف النظريات و المقاربات و المنهجيات و وحدات التحليل:

إن الملاحظ للحقل السوسيولوجي في الجزائر، يجد أن الدراسات السوسيولوجية، لم تستطع استقراء الواقع المعاش لأساليب الممارسات الاجتماعية في الحياة اليومية، التي يقوم بها الفرد الجزائري في واقعه، و تبقى هذه الدراسات تقدم تفسير بعيد عن الواقع، أو عبارة عن تخمينات فكرية، فالسوسيولوجيا لا تتحول إلى لائحة لمأكولات في مطعم، أو شكل من الأشكال الجاهزة، التي تطبق على كافة استشكالات الواقع الاجتماعي، أو تلك التي ينتجها تفاعل الأفراد مع واقعهم اليومي، لأن من الناحية الزمنية علم الاجتماع هو ابن الحداثة، و مهمته هي كشف أسرار التفاعلات في المجتمع، و ما ينتج عنها، لأن السوسيولوجيا تسعى لمساعدة البشر على فهم واقعهم، من أجل التحكم في مصيرهم، فعلم الاجتماع هو علم الواقع، حيث يستند إلى الملاحظة الدقيقة للظواهر الاجتماعية، و إلى مضاهاتها بالنظرية، و دراسة الظواهر الاقتصادية، من خلال أبعاد الواقع الاجتماعي الأخرى، و مثال ذلك ما رأى **ماكس فيبر** في الأخلاق الكالفينية، كحيثية من الحيثيات المولدة للتطور الرأسمالي الحديث، و هذا ما ولد لدى الباحثين السوسيولوجيين استخدام تبويبات، يعارض فيها بين المجتمعات التقليدية و الحديثة، حيث تسمح بتأليف صورة نمطية مثالية للحداثة، مقارنة مع المجتمعات التقليدية، أين تتعارض طبقية المجتمعات التقليدية مع نزعة المساواة الحديثة، و التقاليد مع العقلانية، و القسر مع الحرية، و الكلية مع الفر دانية.[i] كل هذا دفع إلى تراجع النزعة الوظيفية، و بروز مسلمات أنصار التفاعلية الرمزية، حيث أكدوا على أن الواقعة الاجتماعية ليست معطى، بل ضرورة تتشكل ضمن إطار الحالات العينية (الملموسة)، و مع تطور هذا المنظور أصبح علم الاجتماع مطالب بأن يفهم المعنى، الذي يعطيه الأفراد لفعلهم، و اللجوء إلى الاهتمام بالمحاججات العملية للحياة اليومية، التي يلجا إليها الناس في حياتهم الاجتماعية، و كان اهتمام الباحث السوسيولوجي الجزائري في دراساته للظواهر الاجتماعية، مهتما بالظواهر الكلية مهملا للأفعال الاعتيادية، بالرغم من أنها أكثر ثباتا و تأسيسا في المجتمع، و من أجل تقييم ما يحدث في الدراسات الأكاديمية السوسيولوجية، تم طرح جملة من التساؤلات تمثلت فيمايلي :

. هل المقاربات السوسيولوجية المستعملة أكاديميا مواءمة للواقع الجزائري بكل مشاكله و استشكالاته؟ و هل هناك تطابق بين وحدات التحليل في الدراسات السوسيولوجية في الجزائر و المقاربات النظرية المتبناة؟ و هل باستعمالنا للمقاربات السوسيولوجية نطمح إلى بناء سوسيولوجيا عن

الواقع الجزائري؟ أم ننتهي إلى ركام معرفي يصعب تحديده وفقا للقوالب العلمية؟ وهل بقيت وحدة التحليل نفسها في البحوث السوسيولوجية؟ أم أنها خاضعة للتغيير؟ و إذا انتفى المجتمع كمفهوم كما كان في الدراسات الكلاسيكية باعتباره مفهوم افتراضي، فماذا ندرس في علم الاجتماع إذن؟

الـــواقع الاجتمـاعـــي للســوسيولوجيـــا :

لقد كانت السوسيولوجيا منذ نشأتها تسعى لدراسة العلاقات المتبادلة بين أفراد المجتمع، فهي تصفها و تحللها و تفسرها، وهذا من أجل اكتشاف القوانين التي تتحكم فيها، والسعي للتنبؤ بها مستقبلا، ومن أجل ذلك احتلت السوسيولوجيا الريادة لتوغلها في كافة الميادين لحل المشكلات، التي كانت تعترض تطور هذه المجتمعات، إن السوسيولوجيا كانت وليدة الأزمات التي تعد المحرك الدينامي، الذي دفع إلى تطور المقاربات و المناهج والأدوات.

إن بدايات علم الاجتماع كانت في مرحلة عصيبة من تشكل البنى الاجتماعية في المجتمعات الأوروبية، إن تلك التغيرات التي عرفتها أوربا منذ الثورة الفرنسية والثورات السياسية، خلال القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر تركت مجموعة من الآثار والنتائج السلبية، التي كانت موضع اهتمام و حرص علماء الاجتماع، الذين أسسوا على ضوئها علم الاجتماع الكلاسيكي، مؤكدين على السعي للمحافظة على البناءات والنظم والعلاقات والأفعال الاجتماعية، التي مسها التصدع والانهيار، وكنتيجة للحريات الفردية والجماعية التي أهدرت حسبهم كثير من مقومات الحياة الاجتماعية التقليدية، التي أصبحت تهدد بانهيار المجتمع الإنساني، إلى جانب الحدث الأخر الذي أعطى أبعاد أخرى للسوسيولوجيا سواء ما تعلق بظهور نشاط جديد أو تراتيب جديدة، حيث دفعت الثورة الصناعية المجتمعات الأوروبية من مجتمعات بسيطة زراعية إلى مجتمعات صناعية حديثة و مركبة، وما صحبها من تغيرات كبرى في مختلف مجالات الحياة، و أخرى في النشاط الاجتماعي الإنتاجي، كظهور المصانع وفئة التجار الرأسماليين الصناعيين، والطبقات العمالية، و انتشار الأسواق، وكانت كل هذه التغيرات موضع اهتمام علماء الاجتماع الكلاسيكيين أمثال : **دور كايم**، و **ماركس**، و **فيبر**، و **زيمل** وغيرهم.[ii]

كما كان للثورة العلمية، التي كانت سائدة في العلم الطبيعي، إسهام في توجيه رواد علم الاجتماع إلى دراسة وتحليل المشكلات، والقضايا بصورة علمية واقعية، ومن خلال هذا كان علم الاجتماع كمراقب سلبي، للاختلالات الناتجة عن الاهتمام المتزايد بالعلوم الطبيعية، و التطور التكنولوجي، الذي أحدث أضرار في البنى الاجتماعية، التي أصبح يتخبط فيها المجتمع الأوروبي جراء الفكر النقدي الذي كان سائدا، فأنتج المجتمع علما لأجل نفسه لفهم ذاته، فكانت هذه السوسيولوجيا تهتم بالوحدات الكبرى أي المجتمعات، تميزت هذه السوسيولوجيا أقل ما يقال عنها أنها فلسفة اجتماعية، ارتبطت هذه النظرة بالجذور الفلسفية العقلية، التي تمتد إلى الفلسفة اليونانية غير أنها تجددت مع" **كانت**"، بحيث تبني النزعة العقلية، وذلك بدراسة قضايا محددة، تهدف من خلالها إلى الربط بين الاتجاه العقلي والاتجاه الواقعي

الأمبريقي.[iii]ثم بعد ذلك نظر علماء الاجتماع الوضعيون للسوسيولوجيا على أنها تكنولوجيا اجتماعية، أو كأداة لإصلاح المجتمع، وتصليح الاختلالات الوظيفية التي تطرأ جراء عوامل داخلية أو خارجية عن النسق الاجتماعي، و في نظر الرواد يعتبر المجتمع موضوع علم الاجتماع، و الاهتمام بدراسة المجتمع كوحدة تحليل أساسية، وليست على الإطلاق فردا واحدا، و لكن على الأقل فردين معا في علاقة بشكل أو بأخر.[iv]

وتطورت الدراسات الوظيفية التي كانت تهدف من وراء دراسة علم الاجتماع إلى تحليل وتفسير قيام المجتمع بأداء وظائفه بشكل طبيعي أو غير طبيعي، وهذا يتطلب دراسة علاقة مختلف أجزاء المجتمع بعضها ببعض، وعلاقة الأجزاء بالكل، و من هنا تصبح دراسة العلاقة بين التعليم والعمل، وكذا الإسهام الضروري لكل منهما في قيام النسق الاجتماعي ككل، وأداء وظائفه، وهذا ما أكده " **دور كايم** " على أن علم الاجتماع علم عليه أن يكشف، ويفسر العلاقة بين الوقائع الاجتماعية أو الظواهر الاجتماعية، ثم عليه أن يحدد وظيفة كل ظاهرة بالنسبة للأخرى. و من أجل تفسير أي وحدة من الحقائق الاجتماعية، علينا الكشف عن الوظائف التي تؤديها هذه الحقائق في المحافظة على النسق الاجتماعي، الذي توجد فيه، و يعتبر التنظيم الاجتماعي واقع جوهري لا يتجاوزه عالم الاجتماع، لأنه في اللحظة التي يمس فيها العوامل السيكولوجية أو البيولوجية، يبتعد عن علم الاجتماع.

أما عند الماركسية فكان الهدف من دراسة علم الاجتماع، هو وصف وتحليل وتفسير الصراع الطبقي، وفقا للمراحل التاريخية، كما رغب الماركسيون في تغيير المجتمع، وفق رؤية مادية لتاريخ المجموعات، و التي تسعى للكشف عن العلاقة السببية، التي تحكم البنى الاجتماعية المتباينة لأي مجتمع . وهذه السوسيولوجيا هي عبارة عن سوسيولوجيا فلسفية، أي أن العقل بقي يدور حول نفسه، في تحليل الموضوعات، فأنتج لنا فلسفة وليس سوسيولوجيا.

وكانت نظرية الفعل الاجتماعي لـ " **ماكس فيبر**" تدفع بعلم الاجتماع لفهم وتفسير معنى الفعل والتفاعل الاجتماعيين[v]، لأن الفعل توجهه القواعد والضوابط الثقافية للمجتمع ككل، وأن هذه القواعد والضوابط هي منتوج تاريخي لكافة المجتمع، وبذلك فالفعل عنده في مرحلة الحداثة تحكمه وتقوده قاعدة عامة و مثلى، وهي العقلانية البيروقراطية.

ومع نهاية الخمسينيات كانت السوسيولوجيا الأمريكية تحت الهيمنة البنيوية الوظيفية ل"**تالكوت بارسونز**"من جهة، ومن جهة أخرى السوسيولوجيا الكمية والإحصائية **لـ"بول لازار سيفيلد**" التي ميعت التحليل السوسيولوجي الوظيفي، الذي كان يهدف إلى إيجاد العلاقة السببية، فطبيعة تخصصه وتوظيفه للطرق الإحصائية، أوقعت البحوث السوسيولوجيا في التكميم، و أصبح ينظر للظواهر على أنها نسب إحصائية أفرغت من معانيها ومدلولاتها السوسيولوجية، وكرد على هذه الهيمنة المزدوجة بعثت مدرسة شيكاغو من رمادها، مبرزة منظورها باسم التفاعلية الرمزية، وكانوا يسلمون بأن الواقعة الاجتماعية ليست معطى، بل سيرورة تتشكل ضمن إطار الحالات الملموسة.[vi] حيث ينطلق عالم التفاعلية الرمزية من

افتراضات مأدوها، أن تنظيم الحياة الاجتماعية ينشأ من داخل المجتمع ذاته، وبخاصة من عمليات التفاعل بين أعضاء هذا المجتمع، الذي يفترض أنه يتكون من ترتيبات غير ثابتة نسبيا، وتجمعات مهنية تنظيمية، وعرقية، وطبقية ، ومكانية، وسياسية، ودينية، غير متجانسة، حيث يتم بينها تفاعل في أساسه تنافسي بين هذه الجماعات.[vii] وقد تدعمت التفاعلية بأعمال" **شوتز**"، الذي يرى أن المجتمع أصبح مفهوما افتراضي ومجالا واسعا، لا يمكن حصره والتحكم فيه، ولم يعد المجتمع موضوعا لعلم الاجتماع، بل تخلت السوسيولوجيا عن المجتمع، لتنحصر في دراسة المجالات التي تؤسسها الذات الفاعلة، عند بناء عمليات التفاعل المختلفة، وهذا ما يؤكده" **شوتز**" على أن المجتمع عبارة عن بناء من الوقائع المتعددة، التي تترابط حول مجالات مختلفة من الملاءمة في المصالح والعلاقات، أي أن المجتمع ليس عالما للأشياء، بل عالم كونته أو ركبته الذات الفاعلة.[viii]حيث تم التركيز في دراساتهم على الملاحظة المباشرة، وضعين قطيعة مع المنهجية الكمية، وعرف المنهج التفاعلي تحول كبير، عندما وضعّ "**هارولد جار فنكلّ** "كتابة دراسات في المنهج الاثني**1967 م** متأثرا بـ"**شوتز** " الذي يرى أن على عالم الاجتماع فهم المعنى الذي يعطيه الأفراد لفعلهم، ومن أجل ذلك يجب أن يكون جزء من التجربة المباشرة والمألوفة للأفراد، و أما "**جار فنكل**" قام بدراسة حول طريقة تشاور المحلفون ومحاجاتهم، ودهش لما يقدمه المحلفون من محاججة، وتقييم دون أدنى تأهيل قضائي، ومن هنا سعى إلى تصرفاتهم، وبدأ يهتم بالمحاجات العلمية، التي يلجأ إليها الناس في الحياة اليومية لحياتهم الاجتماعية، ومن تم حاولت الإثنوميثودولوجيا أن تكشف عن القواعد الكامنة و المتضمنة في الحياة اليومية، و عن مالها من طبيعة مخططة .

إن عالم الحياة اليومية يتكون من أفعال اجتماعية انعكاسية، تجسد تنوعا من المعاني التي تعتمد على سياق خاص، ويستخدم "**جار فينكل**" مفهوم التكشيف للإشارة إلى ما للمعنى من طبيعة مرتبطة بالسياق، إذ ليس هناك معنى موضوعي في نظره، فالعلم الاجتماعي ليس إلا إنجازا علميا، كما أن عالم الحياة اليومية ليس نسقا يوفق ما بين المجتمع و الثقافة و الفعل، زد على ذلك أن المعنى يبنى و يعطى بالنسبة إلى موقف خاص.[ix] فليس للوقائع الاجتماعية وجود موضوعي مفروض من الخارج، وينظر إلى الأبنية الاجتماعية كوقائع اجتماعية موضوعية و ملزمة، كما يراه دوركايم و الوضعيون، وقد استخدم "**جار فينكل**" منهج التوثيق الكتابي Documenter في إضفاء معنى و تفسير العلم الاجتماعي، و إقامة مظهر النظام، وهذا المنهج يشتمل على اختيار جوانب معنية، من عدد غير محدد من السمات أو الخصائص، التي ينطوي إليها على أنها شاهد على نمط أساسي، ثم تعكس العملية، وتستخدم أمثلة معينة على هذا النمط الأساسي كشاهد على وجود النمط، ويشتمل على معالجة المظهر الفعلي على أنه وثيقة أو إشارة، فلا يشتق أو يستخلص النمط الأساسي فقط من مجموعة الشواهد الموثقة فرديا، وإنما تفسر الشواهد الموثقة فرديا على أساس ما هو معروف عن النمط الأساسي[x]، ومن هنا تكمن مهمة علم الاجتماع في محاولة التعرف على هذه التقاليد المتباينة، التي تظهر في مواقف اجتماعية مغايرة، و بالإمكان أن يتعلم

هذه التقاليد تماما، كما كان قد تعلم سابقا تقاليد مجتمعة، وتهتم بالمناهج الكيفية في دراستها وبخاصة الملاحظة بالمشاركة، ومن هنا يظهر المجتمع أنه مفهوم ولم يعد وحدة واحدة متماسكة، حيث كان ينظر له في السابق على أن تماسكه يأتيه من خارج ذاته، غير أن النظرة تغيرت، و أصبح تماسكه من داخله ومن هويته.

وهذا كله أسس لسوسيولوجيا حياة يومية، تعنى بدراسة الحياة اليومية الاجتماعية للأفراد و الجماعات، وموضوعها الأساسي الأفعال اليومية، أي دراسة المجالات التي تؤسسها الذوات المتفاعلة في عمليات التفاعل المختلفة زمكانيا، كدراسة مواضيع حول : الهجرة، و الجنوسة، والهوية...الخ.

السـوسيولـوجــيا فــي الوطــن العــربي:

كانت بدايات الدراسات الاجتماعية في الوطن العربي مع الاستعمار، و استجابة للفضول الأوروبي حول الثقافة، و تاريخ شعوب المنطقة، من أجل السيطرة عليها و نهب خيراتها الطبيعية، كرد فعل على زيادة الطلب على المواد الأولية لسد حاجات الثورة الصناعية، و البحث في المقومات الثقافية لهذه المجتمعات، من أجل الدراسات الأنثربولوجيا الاجتماعية، سعيا لطمس الهويات الثقافية، و بعد الاستقلال سعت هذه الدول الحديثة البنية، للاهتمام بعلم الاجتماع خدمة للمصالح على حساب النخبة المثقفة و المعرفة، و زاد كل هذا في تهميش العلوم الاجتماعية عامة و علم الاجتماع خاصة .[xi]

وبالرغم من أن البلاد العربية عرفت السوسيولوجيا مبكرا في سنة 1918م، و مثال ذلك تلك الأعمال الأولى، والمتمثلة في مناقشة **طه حسين** لأطروحة الدكتوراه حول "الفلسفة الاجتماعية لأبن خلدون" تحت إشراف **إميل دوركايم**، و بعد وفاته نقشت تحت إشراف تلميذه **سلستان بوجلي** (1870-1940)، وفي هذه الفترة كان الآباء المؤسسون لعلم الاجتماع على قيد الحياة، و كانوا في أوج عطائهم، حيث نشر **دوركايم** مؤلفه "الأشكال الأولية للحياة الدينية" سنة 1912م، و **بارتيو** كتابه:"المدخل لعلم الاجتماع":1916م .[xii]

و كان الوضع في الجزائر لا يختلف كثيرا عن حال المجتمعات العربية الأخرى، حيث بقيت السوسيولوجيا بعيدة عن واقع البيئة الاجتماعية، و لم يكن هناك تجاوب مع المشكلات التي كانت تعيشها البلاد كالبطالة و الفقر، و مشكل التنمية، و مشكل الحريات و غيرها من القضايا، وكان علم الاجتماع حكرا على الحقل البيداغوجي، كما يعد توجه ثقافي موجود في البنية الدينية للمجتمع الجزائري، لأن الدولة تبنت حركة تنموية في منتصف الثمانينات معتمدة على التصنيع و بناء تكنولوجيا، و من أجل إحداث تغير و وثبة اقتصادية في البلاد، لذلك كان الاهتمام بالعلوم التكنولوجيا في المقابل بقت العلوم الاجتماعية و الإنسانية كمراقب سلبي، للإختلالات الناتجة عن زيادة الاهتمام بالتكنولوجيا، ومن أهم أسباب نقص الاهتمام بميدان العلوم الاجتماعية و على رأسها علم الاجتماع نذكر منها :

- اتهام السوسيولوجيين بعدم قدرتهم على الاشتغال على مشكلات المجتمع.

– محاكاة حلول المشكلات الغربية بالرغم من اختلاف البيئات الاجتماعية.
– الجهل بواقع المجتمعات من قبل المشتغلين بالسوسيولوجيا.
– الاغتراب عن هذه المجتمعات.
– تكريس اللامساواة بين العلوم.
– إهمال الخصوصية الثقافية للمجتمعات العربية .[xiii]

أما في الحقبة الاستعمارية ظلت العلوم الاجتماعية والإنسانية مغيبة، بما فيها السوسيولوجيا، حيث مثلت أطروحات السوسيولوجيا، نسبة 11.70% من الإنتاج العلمي، وكانت أهم الموضوعات التي تم تناولها: 11 منها تتعلق بالفلاحين والمجتمعات الزراعية والحياة الأهلية والجمعيات الإخوانية، و10 منها حول القبائل، والبربر، والرحالة، الموزابيين، و8 منها إشكالية النساء، و6 منها موضوع التعليم، و6 منها محاور الديموغرافيا والسكان والمدن، و 5 منها حول الجالية اليهودية، و أطروحتان اثنان تتناولان إشكاليات التعايش بين مختلف المجموعات البشرية.[xiv]

بعد الحرب العالمية الثانية تبنى " **جورج غروفيتش**" (1965/1894) موقف "لصالح إعلان حق العصيان في حرب الجزائر" وتم وصف الوضعية الكولونيالية، وتحليلها من قبل الانتروبولوجيين وعلماء الاجتماع، وقد تميزت بالصبغة الاقتصادية للهيمنة، ولكن تسارع التحرر فتح فكرة التغير الاجتماعي في البلدان المستقلة حديثا، و الانتقال من مقاربة تحليلية للوضعية الاستعمارية، لمقاربة جديدة من أجل فهم الهيمنة الجديدة في ظل التحولات الناتجة في سياق الاستعمار الجديد أو الهيمنة الغربية.

كانت السوسيولوجية في جزائر الاستقلال قريبة من الفلسفة، لأنها كانت لصيقة بالفلسفة، وبعد توفر الجيل الأول من أساتذة السوسيولوجيا، بدأ الانتشار المذهل لأطروحات "**ألتوسير**"، **و** "**بورديو**"، و "**باسرون**"، إضافة إلى آخرون من المدرسة السوسيولوجيا الأوروبية، يقدمون مداخلاتهم في جامعة الجزائر، غير أن التوجه الرسمي أعطى الأولوية للعلوم والتقنيات، من أجل تكوين الإطارات، التي كانت ضرورية لبناء تنمية في البلاد، في المقابل انحصرت مهمة العلوم الإنسانية والاجتماعية في إعداد الأرضية لبناء جيل الأمة الجديدة، وفق الاديولوجية السائدة في المجتمع، وغالب ما كانت الممارسة السوسيولوجيا تقارن بالعلم الاجتماعي الكولونيالي، مهملة النقد الذاتي لهذه الممارسات، أملتا في الدفع بهذه المقاربة بالسوسيولوجيا إلى المراتب الأفضل، كما استفاد السوسيولوجيين إزاء السلطة بحرية أكبر، غير أن هذا الهامش من الحرية، قل بفعل فرض نوع من المقاربة السوسيولوجية الموجهة، و التي تفترض منتجات سوسيولوجية عملية تسيير المشكلات، التي تعيق التنمية في المجتمع، كما أن اهتمام الدراسات بالحقل الشعبي الإثني والقبلي، أدى إلى إنحراف السوسيولوجيا، أين أصبحت غير قادرة على تفسير الديناميكيات العميقة للمجتمع الجزائري .[xv]

إن المتمعن في النظرية الاجتماعية، يجد أن النظرية الاجتماعية تختص بين الوصف الموضوعي للبنى الاجتماعية من جهة، ومحاولات الإمساك بالعالم الذاتي المعيش للناس، الذين تتم دراستهم من جهة أخرى.

إن مفهوم الهابيتوس تعني أن الفرد غير خاضع كليا للضغوط الخارجية كليا، مثلما أيضا هو غير مسيطر على فعله سيطرة مطلقة، إن هذه الإسهامات المبكرة **لـ"بيار بورديو**" ذات صبغة اثنوغرافيا، وذلك عندما كان جنديا في حرب الجزائر، و انثربولوجيا من خلال أعماله حول منطقة القبائل والبربر (البيت البربري)، و سوسيولوجيا في دراسته للممارسة.

لذا فقد كانت السوسيولوجيا علم يتميز بالصعوبة الخاصة، التي تحول بينه، و بين أن يصبح علما مثل العلوم الأخرى، و مرد ذلك أن رفض المعرفة و توهم معرفة فطرية يتواجدان فيه جنبا إلى جنب، بدل أن يتعارضا، سواء عند الباحثين أو عند المطبقين، ووحده النقد البناء يستطيع أن يقضي على اليقينيات، التي تتسرب إلى الخطاب العلمي عبر الأفكار المسبقة، التي تسكن اللغة، وتلك القوالب الجاهزة الكامنة في الخطاب اليومي المتداول حول المسائل الاجتماعية .[xvi]

الســوسيـولوجيـا فـي الجزائــر: بناء علمي أو ركام معرفي ؟:

بعدما تعرضنا إلى الدراسات السوسيولوجية في الجزائر في المرحلة الاستعمارية، وبعدها مباشرة رأينا أنها أصبحت عاجزة على تفسير الديناميكية التي أصبح عليها المجتمع الجزائري اليوم، سنقوم من خلال الدراسة التقيمية لبعض الأعمال السوسيولوجية و الأكاديمية المنجزة في وقتنا الراهن، للوقوف على هذه السوسيولوجيا و ما آلت إليه الآن، لدى قمنا باختيار عدد من رسائل الماجستير المناقشة بطريقة عشوائية، وقمنا بدراستها دراسة تقييميه من خلال المؤشرات التالية:

تقديم العمل الأكاديمي، المفاهيم المستعملة، المقاربة العلمية المستخدمة، منهج الدراسة و الأدوات الموظفة، و وحدات التحليل المعتمدة، و أساليب المعالجة، وسنعرض تقييم رسائل الماجستير الست (06)فيما يلي:

<u>الحالــة الأولــى:</u>

تقديم العمل الأكاديمي:

البحث هو مذكرة ماجستير في علم الاجتماع بعنوان: دور الاتصال في تنظيم الجمعيات "دراسة ميدانية لجمعية الشفاء بالأغواط "بجامعة ورقلة للموسم الجامعي 2010-2012.

المفاهيم المستعملة:أما المفاهيم المستعملة من طرف الباحث تمثلت فيمايلي :الاتصال، التنظيم الإداري، الجمعية، الهيكل التنظيمي، الاتصال المباشر، الاتصال اللفظي و الاتصال غير اللفظي، الاتصال الشخصي...[xvii]

المقاربة المستخدمة:استخدم الطالب المقاربة السوسيولوجية للاتصال (أين تم التركيز على البنائية الوظيفية) غير أن ما يلاحظ أن الطالب لم يوظف المقاربة السوسيولوجية للاتصال، سواء ما تعلق الأمر بالفعل الاتصالي إلى جانب أنه لم يوظف مفاهيم البنائية الوظيفية، و التي تضم جملة من المفاهيم نذكر منها: البناء، النسق، النسق الكلي، النسق الفرعي، المعيقات الوظيفية، البدائل الوظيفية... و غيرها من المفاهيم.

أما منهج الدراسة: فقد صرح الطالب بأنه وظف المنهج الوصفي، وقد استخدم المنهج الوصفي، و من خلال الوصف، و التحليل البيانات، التي تم جمعها من خلال الاستمارة .

الأدوات: استعمل الاستمارة في جميع البيانات، و قد كانت أسئلة مغلقة.

أما وحدة التحليل المعتمدة: فالطالب وظف العلاقات الاجتماعية، و الاتصال بدلا من التركيز على الفرد، و المجتمع، وهذا ما جعل الطالب يغترب في ميدان الاتصال.

الأساليب المعالجة:استخدم أساليب إحصائية شملت التكرارات و النسب المئوية، وقد وظفها بشكل حسن.

الحالــة الثانيــة :

تقديم العمل الأكاديمي:البحث هو مذكرة ماجستير في علم الاجتماع بجامعة قاصدي مرباح ورقلة .

تحت عنوان: انعكاسات أنماط الاتصال التنظيمي في محاكم شؤون الأسرة الابتدائية على سيرورة نزاعات الطلاق" دراسة ميدانية على عينة من المطلقين و المطلقات، بولاية الأغواط" الموسم الجامعي 2010-2011.

أما المفاهيم المستخدمة في البحث هي :الانعكاس، المحكمة، الاتصال التنظيمي، الطلاق،سيرورة نزاعات الطلاق، النزاع، الصراع، السلوك النزاعي، الارتباط، الاتصال التفاعلي.

أما فيما يخص المقاربة المستخدمة: فالطالب استخدم مقاربة أطلق عليها البراد يغم، و تشمل أربع براديغمات و هي :

البراد يغم الوظيفي، البراد يغم التأويلي، البراد يغم الإنساني، و البراد يغم البنيوي الراديكالي.[xviii]غير أن الطالب وظف مفاهيم قضائية كثيرة ربما ذلك راجع لطبيعة الموضوع، كما أن فكرة البراد يغم لم يلتزم بها، لأنه من غير الممكن الالتزام بأربع نماذج للتحليل في آن واحد.

منهج الدراسة: استعمل المنهج الوصفي التحليلي، حيث قام الباحث بوصف للمشكلة من خلال الظاهرة المدروسة، ألا وهي ظاهرة الطلاق و تحليل البيانات المتوصل إليها.

الأدوات: استخدم الاستمارة و التي تتناسب مع المنهج المستخدم.

أما وحدة التحليل المعتمدة: استخدم الباحث التنظيم (الأسرة) كوحدة للتحليل، وهذا لا يتلاءم مع المقاربة السابقة المصرح بها، و التي لاحظنا تعددها، وهذا ما شتت تركيز الباحث في معالجة المشكلة .

أساليب المعالجة: استخدم أساليب إحصائية . نسب مئوية – مقاييس النزعة المركزية اختيار **كا²**، غير أنه ركز على فكرة الارتباط دون توظيف لمعاملات الارتباط .

الحالـة الثـالثـة:

تقديم العمل الأكاديمي:العمل عبارة عن ماجستير في علم الاجتماع بجامعة ورقلة تحت عنوان: نشرات قناة الجزيرة الإخبارية و الوعي السياسي بالصراع العربي الإسرائيلي "دراسة ميدانية على عينة من أساتذة المرحلة الثانوية بمدينة الجلفة " لموسم 2010-2011

المفاهيم المستعملة: استخدم جملة من المفاهيم منها: نشرات الأخبار، الوعي السياسي بالصراع العربي الإسرائيلي، و المفاهيم بعضها مواقف ومفاهيم وجدانية ، لا يمكن قياسها سوسيولوجا، لأنها لا يمكن ملاحظتها .[xix]

المقاربة المستخدمة: لا توجد مقاربة مشار إليها في المذكرة.

منهج الدراسة:استخدم المنهج الوصفي، وهو لا يتناسب مع طبيعة الموضوع، الذي يعالج بالمنهج الكيفي.

الأدوات: اعتمد الباحث على الاستبيان، و كان من المفروض الاعتماد على تحليل المحتوى لنشرات قناة الجزيرة الإخبارية، بدلا من دراسة مواقف عينة من أساتذة المرحلة الثانوية.

وحدة التحليل المعتمدة : لا توجد.

أساليب المعالجة: استخدم الطالب العلاقة الارتباطية الإحصائية، إلى جانب التكرارات و النسب المئوية الدلالة الإحصائية، و التي لم تخدم الموضوع، إلا أنها زادت من البعد عن فهم الظاهرة المدروسة.

الحالـة الـرابعـة:

تقديم العمل الأكاديمي:البحث عبارة عن مذكرة ماجستير في علم الاجتماع بجامعة العربي التبسي . تبسة، تحت عنوان: دور الحوافز في تنمية الموارد البشرية دراسة ميدانية بالمؤسسة الاستشفائية العمومية بنقاوس . باتنة للموسم الجامعي 2012/2011

أما المفاهيم المستخدمة: تمثلت فيمايلي: الحوافز. تنمية الموارد البشرية . الدور . المنظمة . التنظيم الإداري.

أما فيما يخص المقاربة المستخدمة: لم يتبن مقاربة بعينها، غير أنه تكلم عن الإدارة التقليدية، و التحول إلى الإدارة الحديثة.

منهج الدراسة: استعمل الباحث المنهج الوصفي و التحليلي، غير أنه اكتف بالوصف دون التحليل.

الأدوات: صرح الباحث باستخدام الملاحظة، والمقابلة، وصحيفة الاستبيان، غير أنه لم يستعمل لا شبكة الملاحظة ولا دليل المقابلة.

وحدة التحليل المعتمدة: ركز الباحث على التنظيم، غير أنه يتكلم بصفة عامة حول تحفيز العمال داخل المؤسسة.

أساليب المعالجة: استخدم الباحث الجداول البسيطة مع التكرارات و النسب المئوية. [xx]

الحـالـة الخـامسـة:

تقديم العمل الأكاديمي: البحث مذكرة ماجستير في علم الاجتماع بجامعة قاصدي مرباح . ورقلة، بعنوان: النسق الاتصالي في التنظيمات الجمعوية و أثره على الفعالية التنظيمية، دراسة وصفية تحليلية مطبقة على عينة من الجمعيات بـولاية غرداية، للموسم الجامعي 2010.2011

أما المفاهيم المستعملة من طرف الباحث كثيرة نذكر منها: النسق الاتصالي، النسق، النسق الاجتماعي، الاتصال، التنظيمات الجمعوية، المنظمة، التنظيم، التنظيمات، التنظيم الاجتماعي، الالتزام التنظيمي، الضبط الاجتماعي، التنسيق، التعاون، الأداء.

أما فيما يخص المقاربة المستخدمة: صرح الباحث أنه استخدم المدخل البنائي الوظيفي، غير أنه عند تحليل النتائج، اهتم بشكل الاتصال.

منـهج الدراسة: استعمل الباحث المنهج الوصفي التحليلي.

وحدة التحليل المعتمدة: تنوعت مابين التنظيم و الاتصال التنظيمي و النسق، بالرغم أن الباحث تبنى المدخل البنائي، الذي يضم النسق الاجتماعي، والبناء، والوظيفة.[xxi]

الأدوات المستخدمة: وظف الباحث الملاحظة دون شبكة، و المقابلة دون دليل، والاستبيان

أما أساليب المعالجة: استخدم الباحث الأسلوب الإحصائي الوصفي، و الجداول التكرارية، و الدوائر النسبية.

الحــالـة السـادسـة:

تقديم العمل الأكاديمي:العمل عبارة عن مذكرة ماجستير في علم الاجتماع، بعنوان: العلاقة العلاجية و فعالية تماثلاتها، دراسة ميدانية لمرض القصور الكلوي بمركز"تصفية الدم" سيحرى كمال" بالأغواط" للموسم الجامعي2009.2010

أما المفاهيم المستعملة من طرف الباحث شملت المفاهيم التالية: الصحة. المرض . الصحة الايجابية . الصحة المتوسطة . المرض الظاهر. الجسد. الأمراض المزمنة.

أما المقاربة المستعملة: وظف الباحث مقاربتان البنائية الوظيفية، من خلال دور المريض و الطبيب، و التفاعلية الرمزية، من خلال تأثير المرض المزمن على الحياة الاجتماعية للفرد.

منـهج الدراسة: استخدم الباحث المنهج الكمي و المنهج الكيفي، المنهج الكيفي لقياس أفعال كل من المريض و المعالج و اتجاه بعضهما البعض، و المنهج الكمي الاستمارة كتقنية.

الأدوات المستخدمة: الاستمارة، المقابلة بالمرشد، الملاحظة من خلال دفتر المشاهدة.

وحدة التحليل المعتمدة: لا توجد لان الباحث اهتم بالظاهرة كثيرا، من أجل فهمها لأنها جديدة كموضوع لدراسة، مما جعله يهمل التحليل السوسيولوجي.

أساليب المعالجة: اعتمد الباحث على التحليل النوعي لمعطيات المقابلات، و الجداول التكرارية و التحليل الكمي للاستمارة.[xxii]

الاستنتـــاج العـــام للدراســـة :

وبعد النظرة المتفحصة و التقيمية لهذه البحوث الأكاديمية، تم التوصل إلى مـــايلـــي:

1- إن اغلب البحوث الأكاديمية محل الدراسة لم تنطلق من مقاربة نظرية واضحة و واعية في بناء الموضوع، وإذا كانت الإشارة شكلية من خلال التعريف بالمقاربة وذكر أهم روادها، دون الأخذ بالتصورات المنهجية للمقاربة نفسها، وهذا ما أذى إلى عدم توفق الباحثين في اختيار المنهج والأدوات المستخدمة لجمع البيانات .

2- إن الاستخدام المفرط للاستبيان أو الاستمارة و التركيز على الإحصائيات الكمية واستبعاد البحوث الكيفية و أدواتها، يبين جليا أن هذه البحوث رجعت بنا إلى التحليل الوظيفي الكمي، و التي ضيعت التحليل السوسيولوجي التي أتت به المدرسة الدوركايمية، و التي لخصت الدراسات في علم الاجتماع في جداول و نسب إحصائية، أفرغتها من معانيها و مدلولاتها السوسيولوجية، و أصبح التكميم الإحصائي من أجل التكميم، وليس من أجل البحث على العلاقة السببية الوظيفية بين الظاهرة و مكوناتها كما هو الحال في النظرية الدوركايمية على الأقل.

3- كذلك الاستخدام غير المركز للمقابلة والملاحظة، والذي لا تحكمه الضوابط المنهجية والتقنية المطلوبة علميا و ابستيمولوجيا في تكوين الأداة العلمية، والاكتفاء بالإشارة إليهما وتعريفهما، في أغلب الحالات المدروسة.

4- الخلط بين مفهوم التحليل السوسيولوجي الكمي، و بين استخدام الأساليب و المنطق الإحصائي، الذي يبقى غير سوسيولوجي، وعدم قدرة الباحث في استعمال هذه الأساليب.

5- نظريا يعتقد الباحث أنه قام بجمع بين المنهج الكمي و المنهج الكيفي في دراسته الميدانية، و لكن نجد أنه أستعمل المنهج الكمي فقط.

6- كل الحالات التي كانت محل الدراسة الحالية، نجد أنها تقوم بدراسة المنظمة كوحدة للتحليل لا المجتمع، كما كان الحال في النظريات الكلاسيكية، و لا الفرد بكل أبعاده الثقافية، و الاجتماعية، كما هو الحال في الدراسات الحالية، فأخذ المنظمة كوحدة تحليل جعل هؤلاء الباحثين في علم الاجتماع، يبتعدون عن موضوعهم الأصلي، ومنهجيته و أدواته العلمية، و يسقطون في تخصصات أخرى باستعمال جهاز مفهوماتي غريب و دخيل في علم الاجتماع، وعلى ما جاء به الرواد، وتابعيهم، و مجد يديهم، واستعمال

التقنيات الحديثة والمساعدة على الترتيب و التصنيف التقني للمعطيات، و أخذها على أنها أدوات منهجية وعلمية.

7. من الدراسة للحالات المذكورة نستنتج أن الباحثين يحاولون أن يفسروا العلاقة السببية، و الوظيفية، بالاعتماد على نسب إحصائية، كما ذكرنا، وهذا النوع من الدراسات يليق بالمجتمعات التي أنتج عن واقعها سوسيولوجيا، من طرف روادها، أما في حالة الجزائر لازال الواقع الاجتماعي، بكرا خالي من كل مؤشر و معطى سوسيولوجي عنه، يمكن الباحث العمل على إيجاد العلاقات السببية أو الوظيفية.

8- من خلال الحالات المذكورة، يعجز المحلل والدارس لها، على تحديد زمانية

التي تمت فيها هذه الدراسة، هل نصنفها في الدراسات التاريخية،« Temporalité »

أو الدراسات البنيويةأو البنيوية الجنينية، أو دراسات الحياة اليومية، التي في اعتقادنا أصبحت في واقعنا الحالي أكثر من ضرورية، لأنها تعمل على استشكال الواقع اليومي، لإيجاد الإجابة التي ينتظرها المجتمع من الباحث في علم الاجتماع.

9. كما هو معروف أن الصفة الأساسية للعلم هو المساهمة في التراكم المعرفي، المتأتي عن طريق البحث العلمي المنظم و الممنهج، فالسؤال الذي يطرح نفسه الآن من خلال ما تقدم، هل نتائج هذه الدراسات و استنتاجاتها، نستطيع أن نقول أنها ساهمت في تحقيق تراكم معرفي سوسولوجي عن الوقع الاجتماعي في الجزائر؟ في اعتقادنا و من خلال ما تقدم سابقا، أن كل ما نستطيع أن نصفه به، هو ركام معرفي دون تحديد هويته، و لا تصنيف له، و بالتالي نستطيع أن نخلص أن البحوث مجال علم الاجتماع، حسب هذه الحالات المدروسة، بقي يدور حول نفسه، و من أجل الخروج من هذه الوضعية، نرى أنه لا بد على الباحث في علم الاجتماع في الجزائر، تحديد ماذا يدرس؟ أي تحديد دقيق لوحدة الدراسة، و كيف يدرس؟ أي تحديد منهجية الدراسة الملائمة لموضوعه.

وفي الأخير يمكن القول إن السوسيولوجيا علم الواقع الذي يرتكز على الملاحظة الدقيقة للواقع الاجتماعي، الذي يبنى من خلال التفاعلات الاجتماعية في مجالات اجتماعية أكثر إدراكا، وقربا من افتراض مفهوم المجتمع، إلى جانب أن المجالات تتشكل وتعيد التشكل من حين إلى أخر، لذلك يجب البحث عن مقـاربة سوسيولوجية أكثر مواءمة للواقع الاجتمـاعي الجـزائري، الـذي يتميز بالرمزية والتعقد و التغير باستمرار، من أجل استشكاله ودراسته وفهم مشكلاته

---

[i]- فليب كابان وجان فرانسوا دورتيه : **علم الاجتماع من النظريات الكبرى إلى الشؤون اليومية أعلام و تواريخ وتيارات** ، ترجمة إياس حسن ، دار الفرقد للطباعة و النشر و التوزيع ، سوريا، 2010،ص ص 113-114

[ii]- عبد الله محمد عبد الرحمن : **النظرية في علم الاجتماع**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2003، ص 22

[iii]- نفس المرجع ،ص108

[iv]-نيكقولاتيماشيف : **نظرية علم الاجتماع** ، ترجمة : محمود عودة ، دار المعارف ، ط8،مصر ، 1983، ص 29

[v]- مصطفى خلف عبد الجواد،مرجع سبق ذكره، ص 56
[vi]- فليب كابان وجان فرانسوا دورتيه : **مرجع سبق ذكره**،ص 115
[vii]-علي عبد الرزاق جلبي: **نظرية علم الاجتماع** ، دار المعرفة الجامعية، مصر ، 2003،ص203
[viii]-المرجع السابق، ص 169
[ix]- علي عبد الرزاق جلبي ،مرجع سبق ذكره، ص ص 170-171
[x]-المرجع السابق ، ص ص 301-302
[xi]-جمال معتوق : **علم الاجتماع في الجزائر من النشأة الى يومنا هذا** ، ط1، الجزائر ، 2006، ص ص 4-5
[xii]-عبد القادر لقجع : **علم الاجتماع و المجتمع في الجزائر**، دار القصبة للنشر ، الجزائر ، 2004، 68
[xiii]-جمال معتوق ، مرجع سبق ذكره، ص ص 5-6
[xiv]- بوخريسة بوبكر: **السوسيولوجية المغاربية**، الجزائر،مجلة إضافات،العدد: 15، 2011،ص ص 101-102
[xv]- نفس المرجع ص، ص 106-107
[xvi]- بيار بورديو : **الرمز و السلطة** ، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي ، دار توبقال للنشر، ط3، مصر، 2007، ص 20
[xvii]-قويدر بن دبلة : **دور الاتصال في تنظيم الجمعيات دراسة ميدانية لجمعية السشفاء** ، الاغواط ، جامعة ورقلة ، 2010-2011، ص 07
-عبد القادر بداوي : **انعكاسات أنماط الاتصال التنظيمي في محاكم شؤون الأسرة الابتدائية على سيرورة نزاعات الطلاق"دراسة ميدانية على عينة من المطلقين و المطلقات بولاية الاغواط"**، جامعة ورقلة، 2010-2011، ص 14-16
[xviii]- عبد الحق يحياوي : **نشرات قناة الجزيرة الإخبارية و الوعي السياسي بالصراع العربي الإسرائيلي** ، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة ورقلة،2010-2011، ص17
[xix]- موسى بوترعة: **دور الحوافز في تنمية الموارد البشرية** دراسة ميدانية بالمؤسسة الاستشفائية العمومية بنقاوس ـ باتنة، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة العربي التبسي، تبسة، 2011-212
[xx]-فضل الله بن عطا الله: **النسق الاتصالي في التنظيمات الجمعوية و أثره على الفعالية التنظيمية** ، دراسة وصفية تحليلية مطبقة على عينة من الجمعيات بولاية غرداية ، مذكرة ماجستير غير منشورة، جامعة قاصدي مرباح ـ ورقلة، 2010-2011
[xxi]- فاطنة صديقي: **العلاقة العلاجية وفعالية تمثلاتها**، دراسة ميدانية لمرض القصور الكلوي بمركز تصفية الدم، بالاغواط، مذكرة غير منشورة، جامعة ورقلة، 2009-2010[xxii]